

الفصل الخامس عشر غزوة أحد

استعداد قريش بمكة - خروجها للغزو - كيف علم به محمد ﷺ - مشاور المسلمين في التحصن بالمدينة أو الخروج للملاقاة العدو - انتصار المسلمين ثم هزيمتهم - خروج النبي من المدينة غداة أحد ليلحق بالمتصّرين فيغزوهم - عودة أبي سفيان وقريش إلى مكة.

تحين قريش للثأر من بدر:

لم يهدأ منذ بدر لقريش بال، ولم تغنّها غزوة السويق شيئاً، وزادتها سرية زيد بن حارثة التي أخذت تجارتهم حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام حرصاً على الثأر وأدكاراً لقتلى بدر. وكيف لقريش نسيانهم وهم أشرف مكة وساداتها وذوو النخوة والكرامة من كبارها! وكيف لها نسيانهم وما تزال نساء مكة تذكر كلّ منهن في القتل لها ابناً أو أخاً أو أياً أو زوجاً أو حميماً، فهي له تتوجّع وعليه تبيكي وتؤلّل! هذا، وكانت قريش - منذ قديم أبو سفيان بن حرب بالعمير التي كانت سبب بدر من الشام وعاد الذين شهدوا بدرًا وسلموا من القتل فيها - قد وقفت العمير بدار الندوة، واتّفق كبارها: جبرّ بن مطعم وصّفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وحويطب بن عبد العزّى وغيرهم، على أن تباع العمير وأن تعزل أرباحها وأن يجهز بها جيش لقتال محمد ﷺ جرّار في عديده وعدته، وأن تستنفر بها القبائل ليشاركوا قريشاً في أخذهم بالثأر من المسلمين. وقد استنفروا معهم أبا عزة الشاعر الذي عفا عنه النبي من أسرى بدر، كما استنفروا معهم من أتبعهم من الأحابيش. وأصرّت النسوة من قريش على أن يسرن مع الغزاة. فتشاور القوم؛ فمن قائل بخروجهم، «فإنه أقمن أن يحفظكم»^(١) ويذكركم قتلى بدر، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى نترك ثأرنا أو نموت دونه.

تهيؤ قريش للقتال:

ومن قائل: «يا معشر قريش! هذا ليس يرأى أن تعرضوا حُرْمكم لعدوكم، ولا آمن أن تكون الدّيرة»^(٢) عليكم فتفضحوا في نساكنكم». وبينما هم يتشاورون صاحبت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بمن يعترض خروج النساء: «إنك والله سلّمت يوم بدر فرجعت إلى نساكنك. نعم نخرج

(١) يحفظكم: بفضيكم.

(٢) الديرة (بفتح الباء وتسكن) هنا الهزيمة. وتكون أيضًا بمعنى النصر.

فنشهد القتال، ولا يردنا أحد كما رُدَّت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجُحفة^(١) فقتلت الأحيّة يومئذ أن لم يكن معهم من يحرّضهم». وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هند وهي أشدهن على الثأر حرقة، أن قُتل يوم بدر أبوها وأخوها وأعزّ الناس عليها - خرجت قريش تقصد المدينة في ثلاثة ألوية عُقدت في دار الندوة، وعلى اللواء الأكبر منها طُلحة بن أبي طلحة، وهم ثلاثة آلاف، ليس بينهم غير مائة رجل من ثَقِيف، وسائرهم من مكة سادتها ومواليها وأحاييشها. وقد أخذوا معهم مع العُدّة والسلاح الشيء الكثير، وقادوا مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير، ومن بينهم سبعمئة دارع.

مسيرة قريش إلى المدينة:

تهيأ القوم للمسير بعد أن أجمعوا عليه والعبّاس بن عبد المطلب عم النبيّ بينهم واقف على أمرهم مطلع على كل دقيق وجليل من شأنهم. وكان العباس على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحسّ لمحمد ﷺ شعور العصبية وشعور الإعجاب، ويذكر له حسن معاملته إياه يوم بدر. ولعل الإعجاب والعصبية اللذين جعلاه يشهد مع محمد ﷺ بيعة العقبة الكبرى ويخطب الأوس والخزرج بأنهم إن لم يكونوا مانعي ابن أخيه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه ذيابهم من قبل، هما اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير في هذا العدد العظيم إلى أن يكتب كتاباً يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعُدّتهم وعديدهم، ويدفع به إلى رجل غفّارى يسير به إلى النبيّ حتى يبلغ المدينة في ثلاثة أيام فيدفعه إليه. فأما قريش فسارت حتى بلغت الأبواء، ومَرّت بقبر آمنه بنت وهب، فدفعت الحميّة بعض الطائشين منها إلى التفكير في نبشه. ولكن زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة، حتى لا تكون سنة عند العرب، وقالوا لا تذكروا من هذا شيئاً؛ فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا. وتابعت قريش مسيرها حتى بلغت العقيق، ثم نزلت عند السفوح من جبل أحد على خمسة أميال من المدينة.

رسول العباس إلى النبيّ ﷺ - تشاور النبيّ ﷺ وأهل المدينة:

وبلغ الغفّارى الذى بعثه العباس بن عبد المطلب بكتابه المدينة، فوجد محمداً بقباء، فذهب إليه فألقاه على باب المسجد هناك يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبى بن كعب، فاستكمه محمد ﷺ ما فيه وعاد إلى المدينة فقصد إلى سعد بن الربيع في داره فقصّ عليه ما بعث العباس به إليه واستكمه أيضاً إياه. على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سراً. وبعث محمد ﷺ ابني فضالة أنساً ومؤنساً ينتطسان خبر قريش، فألقياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها. وبعث محمد ﷺ من بعدها الحُبَاب بن المنذر بن الجُمُوح.

(١) الجحفة: موضع على طريق المدينة من مكة على ثلاث أو أربع مراحل من مكة، وهي ميقات أهل مصر والشام.

فلما جاءه من خبرهم بالذى أخيره العباس أخذته عليه السلام الحيرة. وخرج سلمة بن سلمة، فإذا طليعة خيل قريش تقارب المدينة وتكاد تدخلها، فعاد فخبّر قومه بما رأى. فخشى الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التى أعدت لها قريش خيراً ما أعدت فى تاريخ حروبها؛ حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبى، وحُرست المدينة كلها طيلة الليل. فلما أصبحوا جمع النبى أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام - أو المنافقين على ما كانوا يُدعون يومئذ وما نُعتوا فى القرآن وجعلوا يتشاورون: كيف يُلَقَّونَ عدوهم.

القائلون بالتحصن بالمدينة:

رأى النبى عليه السلام أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً خارجها، فإذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم. ورأى عبد الله بن أبى بن سلول رأى النبى وقال: «لقد كنّا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجارة، ونشيك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية، فإذا أقبل العدو رمتة النسوة والأطفال بالحجارة وقابلناه بأسياقنا فى السكك، إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضت علينا قط، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا، فدعهم يا رسول الله وأطعنى فى هذا الأمر؛ فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم».

والقائلون بالخروج للقاء العدو - حديث الشجاعة والاستشهاد:

وكان كلام ابن أبى هذا هو رأى الأكابر من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار، كما كان رأى الرسول عليه السلام. لكن فتياناً ذوى حمية لم يشهدوا بدرًا، ورجالاً شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملأ الإيمان قلوبهم أن ليس لقوة أن تغالبهم أو تغلب عليهم. أحبوا الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج وتحصنوا بالمدينة جُبناً عن لقائه. ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا يبدر لا يعرف أهلوه من أمرهم شيئاً. قال قائل منهم: «إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنّا محمداً فى صياصى يثرب وأطامها فتكون هذه مجرئة لقريش. وها هم هؤلاء قد وطئوا سَفَفَنَا فإذا لم ندب عن عِرْضِنَا^(١) لم يزرع، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا أفحيسوننا فى بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يُكَلِّمُوا لئن فعلنا لازدادوا جرأة، ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا، ووضعو العيون والأرصاد على مدينتنا، ثم لقطوا الطريق علينا». وتعاقب الدعاة إلى

(١) العرض (بكسر العين وسكون الراء): هنا كل واد فيه شجر.

الخروج يتحدث كل حديثه، ويذكرون جميعاً أنهم إذا أظفرهم الله بعدوهم فذلك الذى أرادوا، وذلك الذى وعد الله رسوله بالحق، وإن هم انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة.

وهز حديث الشجاعة وحديث الاستشهاد القلوب، واستنفر روح الجماعة الأنفس لتجرى كلها فى هذا التيار، ولتحدث كلها على هذه النعمة، فلم يبق تلك اللحظة أمام الجمع المائل فى حضرة محمد ﷺ الممتلئ القلب بالإيمان بالله ورسوله وكتابه وحسابه، إلا صورة الظفر بهذا العدو المعتدى تفرقه سيوفهم أيدي سبا، ويبعثه بأسهم بدداً شذراً مذبذباً، وتستولى أيديهم على مغائمه ومحارمه؛ وصورة الجنة أعدت للذين قتلوا فى سبيل الله، فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين يلقون فيها أحبهم الذين شهدوا بدرًا واستشهدوا فيها، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾^(١).

تغلب القائلين بالخروج:

قال خَيْثَمَةُ أَبُو سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ: «عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة. لقد أخطأتى وقعة بدر وكنت عليها حريصاً، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابني فى الخروج، فخرج سهمه فَرَزَقَ الشهادة. وقد رأيت ابني البارحة فى النوم وهو يقول: الحق بنا ترافقتا فى الجنة، فقد وجدت ما وعدنى ربي حقاً. وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة؛ وقد كبرت سنى وَرَزَقَ عظمى وأحببت لقاء ربي» فلما ظهرت الكثرة واضحة فى جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته قال لهم محمد ﷺ: «إني أخاف عليكم الهزيمة؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج. فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم. وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة، فلم يكن يتفرد بأمر إلا ما أوحى إليه من عند الله.

النظام مع الشورى:

وكان اليوم يوم الجمعة، فصلَّى النبي بالناس، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيب لعدوهم. ودخل محمد ﷺ بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه درعه وتقلد سيفه، والناس أثناء غيبته هذه فى جدل يتحاورون. قال أسيد بن حُصَيْرٍ وسعد بن مُعَاذٍ، وكانا ممن أشاروا بالتحصن بالمدينة، للذين رأوا الخروج منها: «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوأى أورياً فأطيعوه». ولأن الداعون للخروج لما سمعوا، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول إلى شئ قد يكون لله فيه آية. فلما خرج النبي إليهم لابساً درعه متقلداً سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك؛ والأمر إلى الله ثم إليك». قال محمد ﷺ: «قد دعوتكم إلى هذا

الحديث فأبيتم. وما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمركم به فأتبعوه، والنصر لكم ما صبرتم». وكذلك وضع محمد ﷺ إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام. فإذا تمّ للكثرة رأى بعد بحث، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغاية، بل يجب أن ينفذ الأمر على أن يحسن من يتولى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه.

خروج المسلمين - عودة اليهود وابن أبي إلى المدينة:

وتقدم محمد ﷺ بالمسلمين متجهًا إلى أحد، حتى نزل الشيخين^(١). وهناك بصر بكثيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها فقيل: هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود قال عليه السلام: لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا فانصرف اليهود عائدتين إلى المدينة، إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبي يقولون له: لقد نصحتنا وأشرت عليه برأى من مضى من آياتك فكان رأيه مع رأيك، ثم أبي أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه. وصادف حديثهم هو من نفس ابن أبي؛ فلما أصبحوا انخزل مع كثيبة من أصحابه. وبقي النبي ومعه المؤمنون حقًا وعدتهم سبعمائة، ليقاثلوا ثلاثة آلاف قرشى من أهل مكة كلهم موتور من يوم بدر، وكلهم على ثأره حريص.

تنظيم النبي ﷺ للصفوف:

وسار المسلمون مع الصبح حتى بلغوا أحدًا، فاجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهورهم. وجعل محمد ﷺ يصف أصحابه، وقد وضع منهم خمسين من الرماة على شِعب في الجبل وقال لهم: «إحموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يخبوننا من ورائنا. والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا. وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقديم على النبل»؛ ثم نهى غير الرماة أن يقاتل أحد حتى يأمر هو بالقتال.

قريش ونساؤها:

فأما قريش فصفت صفوفها، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعت اللواء إلى عبد العزى طلحة بن أبي طلحة. وجعلت نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضرين بالدقوف والطبول، فيكنن تارة في مقدمة الصفوف وتارة في مؤخرتها، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وهن يقلن:

وهي بنى عبد الدار وهما حماة الأدبار
ضربًا بكل بشار

(١) الشيخان: موضع كان به في الجاهلية اطمأن فيها شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان فسمي المكان الشيخين لذلك.

ويقلن :

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقُ وَنَفْرُسُ النَّمَارِقُ
أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقُ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقُ

أبو دجانة وعصابة الموت:

واستعدَّ الفريقان للقتال وكلُّ يحرِّضُ رجاله. فأما قريش فتذكر بدرًا وقتلاها. وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره. ومحمد ﷺ يخطب ويحض على القتال، ويعد رجاله النصر ما صبروا. مدَّ يده بسيف فقال: مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ أَخُو بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالَ: وما حقه يا رسول الله؟ فقال: أَنْ تضرب به في العدو حتى ينحني. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً له عصابة حمراء، إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل وأنه أخرج عصابة الموت. فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصب بها رأسه، وجعل يتبخر بين الصَّفَيْنِ على عادته إذ يخال عند الحرب. فلما رآه محمد يتبخر قال: «إنها لمشية يُغضها الله إلا في هذا الموطن».

حمزة وأبو دجانة وعلى وبلاؤهم:

وكان أول من أنشب الحرب بين الفريقين أبو عامر عبد عمرو بن صفية الأوسى، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يحرِّض قريشاً على قتال محمد، ولم يكن شهد بدرًا، فخرج في أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس وفي عبيد أهل مكة؛ وكان يزعم أنه إذا نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يجاريون في صفِّ محمد ﷺ استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً. فخرج فتنادى: يا معشر الأوس: أنا أبو عامر. فأجابه الأوس المسلمون: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! ثم نشب القتال بينهم وحاول عبيد قريش وحاول عكرمة بن أبي جهل، وكان على الميسرة، أن يأخذوا المسلمين من جناحهم، ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة حتى ولى أبو عامر ومن معه مدبرين. هنالك صاح حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال يوم أحد: «أَيْتْ، أَيْتْ» واندفع إلى قلب جيش قريش. وصاح طلحة بن أبي طلحة حامل لواء أهل مكة: مَنْ يبارز! فبرز له على بن أبي طالب والتقى بين الصَّفَيْنِ، فبادره على بضربة فلقت هامته. واغبط النبي وكبر المسلمون وشدوا واندفع أبو دجانة وفي يده سيف النبي وعلى رأسه عصابة الموت، فجعل لا يلقي أحدًا إلا قتله حتى شقَّ صفوف المشركين، فرأى إنساناً يجمش^(١) الناس خمشاً شديداً، فحمل عليه بالسيف فوَلَّوْا، فإذا هند بنت عتبة فارتدت عنها مُكْرِماً سيف الرسول أن يضرب به امرأة.

(١) خمش فلاناً: ضربه وقطع عضواً منه. ويقال: خمش وجه فلان إذا خدشه ولطمه.

مقتل حمزة سيد الشهداء:

واندفعت قريش إلى القتال يثور في عروقتها طلب الثأر لمن مات من أشرفها وسادتها منذ عام بيدر. ووقفت بذلك قوتان غير متكافئتين في العدد ولا في العدة، يحرك الكثرة العظيمة ثأراً لا يهدأ منذ بدر في النفوس ثأره، ويحرك الفئة القليلة عاملان: الدفاع عن العقيدة وعن الإيمان وعن دين الله، والدفاع عن الوطن وعمما يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح. فأما المطالبون بالثأر فكانوا أعز نفراً وأكثر جنداً، وكان من ورائهم الظعن يحركهم، وقد أعدت غير واحدة منهم مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها ممن فجعها بيدر في أب أو أخ أو زوج أو عزيز. كان حمزة بن عبد المطلب، من أعظم أبطال العرب وشجعانهم، وكان قد قتل يوم بدر عتبة أبا هند، كما قتل أخاها ونكلاً يكبر من الأعرّة عليها. وكان يوم أحد كما كان يوم بدر أسد الله رسيقه البتار. قتل أُرطاة بن عبد شريحيل. وقتل سبّاح بن عبد العزى الغُبشاني. وجعل يهذ^(١) كل من لقي بسيفه فتسيل من جسده روحه. وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشياً الحبشي مولى جبير خيراً كثيراً إن هو قتل حمزة، كما قال له جبير بن مطعم موله: «وكان عمه قد قتل بيدر: إن قتلت حمزه عم محمد فأنت عتيق. روى وحشياً قال: «فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أفدّف بالحربة فلف الحبشة قلماً أخطئ بها شيئاً. فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق^(٢)» يهذ الناس سيفه هذا، فهاززت حربتي، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت في ثنته^(٣) حتى خرجت من بين رجليه، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيت فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة. إنما قتلته لأعتق. فلما قدمت مكة أعتقت».

أما المدافعون عن الوطن فكان لهم مثل في قرمان أحد المنافقين الذين أظهروا الإسلام. تخلف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأحد. فلما أصبح عبّره نساء بنى ظفر فقلن: يا قرمان، ألا تستحي لما صنعت! ما أنت إلا امرأة خرج هومك فبقيت في الدار. فدخل قرمان بيته مغيظاً مُحْتَقاً فأخرج فرسه وجعبته وسيفه، وكان يعرف بالشجاعة، فخرج يعدو حتى كان عند الجيش والنبي يسوي صفوف المسلمين، فتخطاها حتى كان في الصف الأول منها، وكان أول من رمى بنفسه من المسلمين، وجعل يرمل نبلاً كأنها الرماح، فلما كان آخر النهار فضل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن أصاب من قريش سبعة رجال في سويّعة غير من قتل منهم بده المعركة. ومز به أبو الغيداق وهو يُسلم الروح، فقال له: «هنيئاً لك الشهادة يا قرمان». قال قرمان: «إنني والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين. ما قاتلت إلا على الحِفاظ أن تسير قريش إلينا فتفتح حرمنا وتطأ سَعَفنا،

(١) يهذ: يقطع.

(٢) الأورق من الإبل: الآدم، وقيل ما في لونه بياض إلى سواد.

(٣) التثنية: ما بين السرة والعانة من أسفل البطن.

ووالله إن قاتلتُ إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ».

أما المؤمنون حقاً، وكان عددهم لا يزيد على سبعمائة يقاتلون ثلاثة آلاف فقد رأيت من فعال حمزة وأبي دُجانة ما يصور لك صورة من قوتهم المعنوية؛ قوة انتنت أمامها صفوف قريش وكأنها الحيزران، وتراجع أمامها أبطال قريش وكانوا بين العرب مضرب المثل في الإقدام والشجاعة. وكان لواؤهم لا يسقط من يد حامله حتى يأخذه خلفه. حمل عثمان بن أبي طلحة اللواء بعد أن قتل عليّ طلحة بن أبي طلحة، فلقى مصرعه على يد حمزة. وحمله أبو سعد بن أبي طلحة وصاح: أتزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار! والله إنكم لتكذبون. ولو كنتم تؤمنون حقاً فليقدم منكم من يقاتلني. وضربه عليّ أوسعد ابن أبي وقاص بسيفه ضربة قلقت هامته. وتعاقب حملّة اللواء من بني عبد الدار حتى قُتل منهم تسعة، كان آخرهم صُواب الحبشي غلام بني عبد الدار، وقد ضربه قرمان على يده اليماني، فتناول اللواء باليسرى، فقطعها. قرمان بسيفه، فضم صُواب اللواء بذراعيه إلى صدره ثم حتى عليه ظهره وهو يقول: يا بني عبد الدار، هل أعذرت؟ وقتله قرمان أو قتله سعد بن أبي وقاص، على خلاف في الرواية. فلما قُتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء حتى أحيط بنسائهم، وحتى وقع الصنم الذي احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذي كان يحمله ومن خلال الهودج الذي كان يحتويه.

ظفر المسلمين صبيحة أحد - قوة العقيدة والإيمان:

والحق أن ظفرَ المسلمين في صبيحة يوم أحد كان معجزةً من معجزات الحرب، قد يفسرها بعضهم بهارة محمد ﷺ في وضعه الرُماة في شعب الجبل يصدون الفرسان بالنبل فلا يتقدمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم. وهذا حقٌّ. ولكن من الحق أيضاً أن ستّ المائة من المسلمين الذين هاجموا عدداً يوازي خمسة أمثالهم، وعدّة في مثل هذه المسية، إنّا دفعهم إلى معجزات السطولة التي أتوا شيء أعظم من مهارة القيادة: ذلك هو الإيمان، الإيمان الصادق بأنهم على الحق. ومن آمن بالحق لم تزعجه قوة مادية مهما عظمت، ولم تضعف من عزيمته كل قوّات الباطل وإن اجتمعت. وهل رأيت مهارة القيادة وحدها كانت تُغني والرُماة الذين وضعهم النبي في الشعب لم يكونوا إلا خمسين، فلو أن مائتين أو ثلثمائة رجل هاجمهم مستقطين لما ثبتوا ولا صبروا أمامهم. لكن القوّة الكبرى، قوة الفكرة، قوة العقيدة، قوة الإيمان الصادق بالحق العلي الأعلى، هذه القوة لا غالب لها ما أراد صاحبها وجه الحق وحده. ولذلك تمزّقت قريش في ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات ستمائة مسلم، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات. وتبع المسلمون عدوهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتى بُدّ عن معسكره؛ فجعل المسلمون ينتهون الغنيمة، وما أكثر ما كانت! وصرفهم ذلك عن اتباع عدوهم ابتغاء عَرْض الدنيا.

اشتغال المسلمين بالغنيمة - مخالفة الرماة أمر النبي وأخذ خالد بن الوليد مكانهم:

ورآهم الرماة الذين أمرهم الرسول ألا يبرحوا الشعب ولو رأوه وأصحابه يقتلون فقال بعضهم لبعض وقال سال لمرأى الغنيمة لُعابهم: «لم تقيمون ههنا في غير شيء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا فاغنموا مع الغانين» قال قاتل منهم: «ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا؟!» قال الأولون! «لم يرِدْ رسولُ الله أن يبقى بعد أن أذلَّ الله المشركين». واختلفوا فخطبهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْرُ أن لا يخالفوا أمر الرسول، فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر دون العشرة. واشترك المنطلقون في النهب وشغلوا كما شغل سائر المسلمين به. إذ ذاك اهتبل الفرصة خالد بن الوليد، وكان على فرسان مكة، فشد برجاله على مكان الرماة فأجلاهم. ولم يفتن المسلمون لفعله لأنهم شغلوا عنه وعن كل شيء بهذه الغنائم يعيئون منها، حتى ولم يبق رجل منهم وقع في يده شيء إلا أخذه. وإنهم لذلك إذ صاح ابن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين.

الدائرة تدور على المسلمين:

عند ذلك عاد منهم كل منهزم فأتخنوا في المسلمين ضرباً وقتلاً. وهناك دارت الدائرة؛ فألقى كل مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد إلى سيفه يسله ليقاتل به. ولكن هيهات هيهات! لقد تفرقت الصفوف وتفرقت الوحدة وابتلع البحر اللجى من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين كانت إلى ساعة تقاتل بأمر رها تنضح عن إيمانها، وهى الساعة تقاتل لتنجو من برائن الموت ومخالب المذلة. وكانت تقاتل متراصة متضامنة، وهى الآن تقاتل مبعثرة متناكرة. وكانت تقاتل تحت قيادة قوية حازمة حكيمة، وهى الآن تقاتل ولا قيادة لها. فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه وهو لا يكاد يعرفه. وصاح صائح بالناس: إن محمداً قد قُتل، فازدادت الفوضى وعظمت البلبلة، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش. قتل المسلمون موأطينهم المسلم حُسَيْل بن جابر أبا حذيفة وهم لا يعرفونه. وكان أكبرهم كل مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله. من أمثال علي بن أبي طالب.

ما أصاب رسول الله ﷺ:

على أن قريشاً ما لبثت حين سمعت بمقتل محمد ﷺ أن تدافعت تدافع السيل إلى الناحية التي كان فيها، وكل يريد أن يكون له في قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به. هنالك أحاط المسلمون القرييون بنبيهم يدافعون عنه ويحمونه، وقد عاد الإيمان فعلاً نفوسهم وملك قلوبهم وحبب إليهم الموت وهون عليهم الحياة الدنيا. وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا الحجارة التي تقذفها

قريش قد أصابت النبي فوق لِسْقِهِ فَأَصَبَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهِ، وَكُلِّمَتْ شَفَتُهُ، ودخلت حلقتان من المِغْفَرِ الذي يستر به وجهه في وجنته. وكان رامي الحجر الذي أصابه عُتْبَةُ بن أبي وقاص. وقال الرسول وسار وأصحابه من حوله، فإذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون. هنالك أسرع إليه علي بن أبي طالب فأخذ بيده ورفع طلحة بن عُبيد الله حتى استوى وجعل يسير وأصحابه، متسلقين أَحَدًا نَاجِينَ من العدوِّ وَاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ.

استماتة المؤمنين في الدفاع عن الرسول ﷺ:

وفي لحظة قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا في الدفاع عن رسول الله استماتة لا يُقَهَّرُ صاحبها أبدًا. كانت أُمُّ عَمَارَةَ الأنصارية قد خرجت أول النهار ومعها سِقَاءٌ فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تَسْقِيْ مِنْهُمْ من استسقى. فلما انهزم المسلمون أَلْقَتْ سِقَاءَهَا واستَلَّتْ سِيفًا وقامت تباشر القتال تَذَبُّ عن محمد ﷺ بالسيف وترمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليها. وترس أبو دُجَانَةَ بنفسه دون رسول الله، فحني ظهره والنبل يقع فيه. ووقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب محمد يرمى بالنبل دونه ومحمد يناوله النبل ويقول له: ارمِ ذاك أبي وأمي. وكان محمد قبل ذلك يرمى بنفسه عن قوسه حتى اندقت سِيَّتُهَا. هذا، فأَمَّا الَّذِينَ ظَنُّوا مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ومن بينهم أبو بكر وعمر فانتحوا الجبل وألقوا بأيديهم. فرآهم أنس بن النضر فقال: ما يجلسكم قالوا: قتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعد! قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القومُ فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاءً منقطع النظير، حتى إنه لم يَقْتُلْ إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنائه.

زعم قريش موت النبي ﷺ - نجاة الرسول ﷺ ومن معه:

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت محمد ﷺ، فراح أبو سفيان يفتنقه في القتلى؛ ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذب أحد منهم خبر قتله إطاعةً لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه. على أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحية أبي دُجَانَةَ ومن معه فعرف محمداً حين رأى عينيه تَزْهَرَانِ تحت المِغْفَرِ فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله؛ فأشار النبي إليه ليستكت. لكن المسلمين ما لبثوا حين عرفوا أن نهضوا بالنبي ونهض هو معهم نحو الشعب، ومن حوله أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط غيرهم. وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها. صحيح أن أكثرهم لم يصدّقها وحسبها صيحة أريد بها شدُّ عزائم المسلمين. إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد والذين ساروا معه. وقد أدركهم أبي بن خَلَف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا! فطعن الرسول بحربة الحارث بن الصمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجَه ليموت في الطريق. فلما انتهى المسلمون إلى قَمِ الشعب خرج عليٌّ فملاً دَرَقَتَهُ ماء، ففسل محمد به الدم عن وجهه وصَبَّ منه على رأسه؛ ونزع

أبو عبيدة بن الجراح خَلَقَ الْمُفَرَّ من وجه الرسول فسقطت ثِيَابُهُ. وإنهم لذلك إذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من أصحاب الرسول فردوهم. وازداد المسلمون في الجبل تصعيّداً وقد نهكهم التعب وهُدِّمَ الجهد، حتى صلى النبيُّ الظهر قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

التمثيل بقتلى المسلمين:

فأما قریش فطارت بنصرها سروراً، وحسبت نفسها انتصمت لبدر أشد الانتقام؛ حتى صاح أبو سفيان: «يَوْمَ يَوْمٍ يَدْرُ والموعِد العام المقبل». وأما هند بنت عُتْبَةَ زوجة فلم يَكْفِها النصر. ولم يَكْفِها قتل حمزة بن عبد المطلب، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمتلن بالقتلى من المسلمين يَجْدَعْنَ الآذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأفراطاً، ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها، وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعلت النسوة ممن معها، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع، أن تبرا أبو سفيان من تبعنها، وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه، بل قال يخاطب أحد المسلمين: «إنه قد كان في قتلاكُم مثلي، والله ما رَضِيتُ وما سَخِطْتُ وما نهيتُ وما أمرتُ».

حزن محمد ﷺ على حمزة - دفن القتلى والعودة إلى المدينة:

وانصرفت قریش بعد أن دفنت قتلاها؛ وعاد المسلمون إلى الميدان لدفن قتلاهم. وخرج محمد يلتمس عمه حمزة. فلما رآه قد بُرِّرَ بطنه ومُثِّلَ به حَزَنَ من أجله أشد الحزن وقال: «لن أصاب بمثلك أبداً. ما وقفتُ موقفاً قط أغيظُ إلى من هذا...» ثم قال: «والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثله لم يمتلها أحد من العرب». وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١) فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة، وسجى حمزة ببرده وصلى عليه. وجاءت أخته صنية بنت عبد المطلب، فنظرت إليه وصَلَّتْ عليه واستغفرت له. ودفن حمزة، وأمر النبيُّ بالقتلى فدُفِنُوا حيث لقوا مصارعهم، وانصرف المسلمون إلى المدينة ومحمد على رأسهم، تاركين وراءهم سبعين من القتلى؛ يحزُّ في نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة من بعد نصر، ومن مذلة وهوان بعد ظفر لا ظفر مثله؛ وذلك كله لعصيان الرُّمَاءِ أَمْرَ النبيِّ واشتغال المسلمين عن العدو بغنائمه.

لابد من استرداد هيبة المسلمين:

ودخل النبيُّ إلى بيته وجعل يفكر. ها هم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين

(١) سورة النحل آيتا ١٢٦ و ١٢٧.

يُظهرون السرور أسد السرور لما كان من هزيمته وأصحابه. وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقر فلم يبقَ لاحد أن يمارع فيه، وها هو يُوشك أن يضطرب وتزعزع. وهذا عبداً الله من أبي بن سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعى أن محمداً لم يسمع رأيي، أو أن محمداً غضب على مواليه من اليهود. ثلث أن هزيمة أحد بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لأن أمر محمد وأصحابه على العرب، ولتضعض سلطانهم بينرب، ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش بهم وإرسالها دعابة السخر والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً. ولئن حدث هذا لجاء في أثره احتراء المشركين وعبيد الأوثان على دين الله فنكون الطائفة الكبرى. فلا بد إذاً من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد وترد إلى المسلمين قوتهم المعنوية، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الرهبة وتعيد إلى محمد وأصحابه سلطانهم بيبثرب قوياً كما كان.

الخروج في الغد إلى العدو:

فلما كان العد من يوم أحد. وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن النبي في المسلمين يطلب العدو واستفرهم لمطارده، على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة. وخرج المسلمون، فوقع في روع أبي سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم. وبلغ محمد حمراء الأسد^(١)، وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء فمر به معبد الحزاعى، وكان قد مر بمحمد ومن معه، فسأله عن شأنهم فأجابه معبد - وكان لا يزال على الشرك - : «إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنفاً ومنكم للتأثر طلباً». على أن أبا سفيان فكر فيما يكون لفراره من محمد ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه بأحد من الأثر. أفلا تقول العرب في قريش ما كان يود هو أن تقوله في محمد وأصحابه؟ ولكن هبّه رجع إلى محمد نهزمه المسلمون، إذاً ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً. فلجأ إلى الحيلة، فبعث مع ركب من عبد القيس يقصدون المدينة أن يبلغوا محمداً أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم. فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعض عزمه ولم تبين قوته، بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابة، ليدل قريشاً على أنه على عزمه وأنه ينتظر رجعتهم. وأخيراً تزعزت^(٢) هبة أبي سفيان «قريش»، وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدرأجهم ميممين مكة. ورجع محمد إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانة تزعزت على أثر أحد، وإن كان المنافقون قد بدءوا يرفعون رءوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم: إذا كانت بئر آية من الله برسالة محمد فماذا عسى أن تكون آية أحد وماذا تكون دلالتها؟!

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة

(٢) تزعزت: تفرقت.